لا تندم على شيء قرأته!(١)

أحمد بيضون(*)

الكتابة، في أصلِ ما هي، كرَم: كرَمٌ فادح يصعب أن نقع له على نظير. فهل يناظرها الكرم بالوقت أو الكرم بالمال أو الكرم بالطاقة العضلية؟ لا، قطعاً. هذا الذي يعطى بالكتابة، حجبت الكثرة الهائلة والتكرار المفرط سطوع الكرم الذي فيه. مزاولو الكتابة كثيرون وهم يزدادون كثرة من عصر إلى عصر، والميّتون منهم قد تبقيهم أعمالهم في التداول. نعود لا نفطن، ونحن حيال هذا التراكم المهول، إلى ما أعطانا كل واحد كتَب أو كل نصّ وصل إلى أيدينا. لا نفطن إلى أن عقولاً ومخيّلات وحواسّ وذاكرات ومشاعر لا تحصى، إلى أن بشراً لا يُحصون مبذولون بأجلّ ما فيهم في ما هو منشور. هم في المتناول، متناولنا، بالبدل البخس دائماً أو، إن نحن بذلنا الجهد اللازم أو سلكنا السبيل المناسب (سبيل المكتبة العامة مثلاً)، بلا بدل بالمرّة. يتعين علينا أن نخترق حجاب العادة لنعلم أية نعمة هي أن يكون ميسوراً لأي كان اقتناء كتاب لأفلاطون أو للجاحظ أو لغوته، أو لأيّ من آلاف آخرين بثمن قد لا يجاوز ثمن وجبة سريعة واحدة، وأن تكون ميسورة استعارة الكتاب لمن لا يقدر على شرائه أو لا يرغب فيه.

(١) كلمة أعدّت لحفل افتتاح أسبوع المطالعة في لبنان وألقيت في قصر الأونيسكو، في بيروت، يوم ١٦ نيسان ٢٠١٠.

(*) باحث وأستاذ علم اجتماع الثقافة والمعرفة في الجامعة اللبنانية.

تلك نعمة أسبغتها علينا ثورة الطباعة، بالطبع. واليوم نوغل، بلا وعي منا تقريباً، في ثورة طباعية على الطباعة، نراها هاجمة علينا وفي جعبتها العجب العجاب. أمضيت خمسين سنة لأجمع ما يقرب من ستة آلاف مجلّد حصّلتها من ألف سبيل وسبيل. تحتل هذه المجلّدات نحواً من مائة وخمسين متراً من الرفوف، موزعة بين منزلين، وقد يصل وزنها إلى ثلاثة أطنان. والكتب، في المكتبة الشخصية، تمثل، بتواريخ اقتنائها وبمروحة أنواعها وموضوعاتها، خريطة لعمر الإنسان الفكري أو الروحي... خريطة يتشكّل بها العمر طبقات تشبه طبقات الأرض. فلا غرو أن يرى صاحب المكتبة صورة حياته أو خلاصتها مترائية، على نحوٍ ما، فوق رفوف مكتبته.

وقبل شهور جاءني، على سبيل الهدية، قرص مضغوط واحد عليه ما يقرب من هذا العدد نفسه من دواوين الشعر العربي. ويستثير شهيتي، في المعارض، قرص آخر عليه اثنا عشر ألفاً من الكتب يظهر أنها تغطي فروع التراث الإسلامي، على اختلافها، إلخ، إلخ. حين لا تكون هذه الأقراص مقرصنة بحيث تصبح بلا ثمن تقريباً، يبقى ممكناً تحصيلها بثمن حلال لا يزيد عن كلفة كتب خمسة أو عشرة، معتدلة السعر. هذه حال مستجدّة مختلفة جدّاً عمّا كنّا (ولا نزال) فيه من أيّام غوتنبرغ. وعلى الرغم من هذه الوفرة الجديدة، البالغة حدّ الهدر، أبقى مصرّاً على أن الكتابة كرم لا يوصف، وأن القراءة إنعام على النفس يفوق الوصف. غير أنني مسلّم أيضاً (وإن يكن بعض الشعراء، خصوصاً، لا يرضيهم هذا) بأن الكتّاب لا يوجدون بما هم أهل كرم محتمل ما لم يوجد لهم قرّاء. فعل القراءة يوجد الكاتب فعلاً فيما يبقيه فعل الكتابة توقاً واحتمالاً.

قد تقولون إن ما يُكتب ليس كله أفلاطون أو ماركيز أو السيّاب. هتلر وستالين كتبا أيضاً وتخلّفا عن ذرّية كثيرة، يتنوع أنفارها أزياءً وأحجاماً، وهي غير مقصّرة في الكتابة أيضاً، وبعضها أقام أو هو لا يزال مقيماً بين ظهرانينا. وكثير مما تنشره صحفنا عدوان يومي علينا. أدعوكم، مقتدين بالسيد المسيح، إلى شكر المعتدين بالكتابة عليكم وإلى التسبيح بحمد السفّاحين، لا بما هم سفّاحون، بل بما هم كتبة في أوقات الفراغ أو بما هم متفرّغون، في بعض حالاتهم، للكتابة. فلولا أن العقول تُهان لم تدرك لكرامتها معنى ولم ترفع لهذه الكرامة حصوناً ولم تحصّل ما تحتاج إليه من دربة أو لم تزد في هذا التحصيل. ردّ الحملات على العقل هو

رياضة العقل. ولولا أن المشاعر تُجرح لم نبلغ الرقّة المبتغاة في الشعور ولا أدركنا الرفعة في الاحتجاج. لذا كان السفيه من المكتوب موضوع احتياج منّا، يستثير حاسّتنا الناقدة فنَحمل عليه، ولكن لا نرفض وجوده من الأصل. ولذا لم يكن لنا أن نأسف على أننا قرأنا شيئاً قرأناه. حين نقرأ الغثّ نأنس إلى ذخيرتنا من السمين أو ندرك أن علينا تكثيرها. ولا نقرأ لجمال ما نقرأ وحسب، مع وجود حقّ مؤكّد لنا في الجمال. وإنما نقرأ أيضاً لنعلم ما قيل وما يقال في مسألة تهمّنا أو، على الأعمّ، في أحوال هذا العالم الذي نحن منه.

شيء آخر أحبّ أن نقترحه هو أن نضمّ المشاهدة والسماع إلى ما نسمّيه المطالعة. نسمع تذمّراً كثيراً من طغيان الصورة والصوت، مقترنين، على الكلمة المكتوبة. لا اعتراض لي على القول إن ثمة ميزاناً يجب أن يرعى ما بين حوامل الثقافة فلا يؤول أيّ منها إلى الاندثار لما في إلغائه من خسارة لا تقبل تعويضاً. لم يكن جائزاً أن تلغي السينما (بما فيها التلفزة والفيديو) التصوير الفوتوغرافي ولا هي ألغته فعلاً، مع أنها تبدو مشتملة عليه وفائقة إيّاه جدّاً بتعدّد العناصر والأبعاد. ولم يكن التصوير الفوتوغرافي، في أيّام سطوته، قد ألغى أيّاً من الفنون التشكيلية. ولا نرى أن الصورة والصوت، مقترنين، يصادران شيئاً من جلال الكلام المكتوب أو جماله ومن الحاجة إليه. هما يؤمّنان، إلى المتعة (أو الفائدة)، سبلاً أيسر سلوكاً وأسرع جذباً من تلك التي يفتحها الكلام المكتوب. ولكن ما يسع هذا الأخير حمله منفرداً (وبفضل هذا الانفراد، على التحديد) لا يسع السينما، بقضّها وقضيضها، أن تبلّغه بالكمال نفسه بما هو رسالة. الفيلم الذي يُبنى على رواية عظيمة لا يبطل الحاجة إلى قراءتها. هذا فضلاً عن أنه قلما أدرك فيلم مبنيّ على رواية عظيمة عظمة الرواية في عين من أحسن قراءتها. وما بالك بالمؤلّف الفلسفيّ؟ لنا أن نشكو الخلل في الميزان المشار إليه إذن، ولكن ليس لنا أن نصل إلى حدّ الخشية على مصير الكلام المكتوب. نحن خاسرون إذا مِلنا إلى هجر المكتوب لصالح المصوّر ـ المسموع ولكن لا تستدعي الغيرة على المكتوب غيرة من المرئيّ ـ المسموع.

هو الكرَم إذن ما تمثّله الكتابة، وهو الإنعام على النفس وهو المتعة ولو مقترنة بالمشقّة ما تمثّله المطالعة. هو الجود من النفس وليس «الجود بالنفس» ما يمثله التأليف، إذا استذكرنا قول شاعر أوّل. وهو أن تشتمل بنفسك على «نفوس كثيرة» ما تمثله المطالعة، إذا استذكرنا قول شاعر آخر. وحين نذكر الجود من

النفس، يُستحبّ أن نشعر بالامتنان إنصافاً، ولكن لا يُستحبّ أن نشعر بالرهبة. يصل إلينا الكلام المكتوب ناجزاً، وقد نجده، فوق النجاز، كاملاً إلى حدّ يرهبنا. ننسى المخاض الذي تلاحقت فيه مسوّدات ورقية أو نفسية قبل بلوغ الكلام حاله التي وصل عليها إلينا. ننسى أن الكاتب قد ينسى، وهو يكتب، كثيراً أو قليلاً مما رغب في قوله ذات هنيهة. ننسى أن النصّ ما كان ليكون هو نفسه لو أكمل صاحبه الكتابة في سهرة ما وليس في الصباح التالي. ننسى أن النصّ احتمالات متسلسلة، بالتالي، وأن دور الضرورة في تشكّله وولادته دورٌ مشْكل محيّر، لا يستقرّ على حال من نصّ إلى آخر ويتسرّب من بين الأصابع كلما خال الكاتب نفسه على أهبة السيطرة عليه. ننسى أن الكاتب يصبح بعد حين قارئاً لنفسه في جملة قرّائه. يحصل هذا حين يمرّ الزمن على مخاض النصّ إلى حدّ يجعل النصّ قادراً على مواجهة صاحبه بقناع من ضرورة كاذبة. ننسى، على الجملة، ما كتبه عبد الرحيم البيساني إلى العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيّر هذا لكان أحسن ولو زِيد هذا لكان يُستحسن ولو قُدّم هذا لكان أفضل ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

فليواجه القرّاءُ الكتّابَ بإنصاف للكرم الذي في الكتابة ولكن بلا رهبة من الكتّاب، كائنين من كانوا. وليواجه الكتّابُ القرّاءَ بمعرفة لما يسع الكتابة أن تكون عليه من جود أيضاً... ولكن دون ذاك الغرور الذي يسنده شعور بكمال ما يبذلون، إذ هذا شعور لا نراه يصمد لأدنى نظر. ولنعلم أيضاً أن الكتابة قد لا تكون خارج متناول هذا أو ذاك من المقبِلين على القراءة ولو اعتقد ذلك... فليُقْدم إن كان لا يأبى أن يُعدّ للأمر عدّته وأن يعاني أكلافه وعواقبه. ولنعلم، أننا، على التعميم، محتاجون إلى القراءة كتّاباً وقرّاءً... فلا نكون مصداقاً لقولة واحد من أصحابنا: «الناس كتّاب أو قرّاء: القرّاء لا يكتبون والكتّاب لا يقرأون».